# المقوِّم الأول

# الكون

# الكـــون

في القرآنِ الكريمِ ما يزيدُ على ألفٍ وثلاثمئة آيةٍ كونيّةٍ ، ألم يسألْ أحدُنا نفسَه : لماذا جاءت هذه الآياتُ في القرآنِ الكريمِ ؟ لو لم نكن مكلَّفين أن نتفكرَ فلماذا هذه الآياتُ ؟ هل يعقلُ أنْ يقولَ اللهُ كلاماً لا معنى له ؟ ليس هذا من المعقولِ إطلاقاً ، فما دام هناك آياتٌ كونيّةٌ فهذا يعني أنّ هناك عبادةً اسمها التفكرُ ، فالآية التي فيها أمر تقتضي من المؤمن تنفيذ هذا الأمر ، وكذلك الآية التي فيها نهي تقتضي من المؤمن الانتهاء عما نهت ، وأما الآيات التي تتحدث عن مشاهد الجنة والنار فإنها تدعو المؤمن إلى الرغبة في الجنة والخوف من النار وعمل ما يقرب إلى الجنة ويبعد عن النار ، وأما الآيات التي تروي قصص الأقوام السابقين فإنها تدعو المؤمن إلى أخذ العبرة والدروس لئلا يقع بما وقع به الماضون من أخطاء ، فإذا كانت الآية تعرض لآية من آيات اللهفي النفس أو الكون فإن واجب المؤمن تجاهها ـ بلا شك ـ هو النظر والتفكر وإعمال العقل ليصل إلى الله تعالى من خلالها ، إذاً أنت أمام عبادة من أرقى العباداتِ ، لأنها تضعك أمام عظمةِ الله عز وجل ، وهذه العبادة شِبْهُ معطّلةٍ في العالَمِ الإسلاميِّ ،

قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران : ١٩٠ـ١٩١] .

وقال عزوجل : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس : ١٠١] .

وقال : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف : ١٠٥] .

فهناك آياتٌ كثيرةٌ نمرُّ عليها ، في الفَلَكَ ، والمجرّاتِ ، والطعامِ دون أنْ نتفكّرَ فيها : ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ [عبس : ٢٤] .

هذا أمرٌ إلهيٌّ ، وكلُّ أمرٍ في القرآنِ يقتضي الوجوبَ ، قال تعالى : ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق : ٥ـ٦] .

في الكونِ ظاهرةٌ عجيبةٌ ، وهي أنّ الماءَ كأيِّ عنصرٍ آخر ، إذا برّدتَه ينكمشُ ، وإذا سخّنته يتمدّدُ ، إلاّ أنّ الماءَ ينفردُ عن بقيّةِ العناصرِ بميزةٍ ، وهي أنه عند الدرجةِ ( +٤ ) تنعكسُ خصائصُه فيتمدّدُ ، فإذا برّدتَه يزدادُ حجمُه ، فتقلُّ كثافتُه ، فيطفو على السطحِ ، ولولا هذه الظاهرةُ لما كنتَ تقرأُ الآن هذا الكتابَ ، ولمَا كان في الأرضِ كلِّها إنسانٌ ، هل تصدِّقون هذا ؟

لولا هذه الظاهرةُ لما كانت حياةٌ على وجهِ الأرضِ ، لأنّ الماءَ لو

لم يتمدّد عند التبريدِ لقلَّ حجمُه ، وازدادتْ كثافتُه فيغوصُ ، وبعد حينٍ تتجمّدُ كلُّ المحيطاتِ ، وينعدمُ التبخُّرُ ، وينعدمُ المطرُ ، ويموتُ النباتُ ، ويموتُ الحيوانُ ، ويموتُ الإنسانُ ، وانتهى الأمرُ ، فمَن أودعَ هذه الميزةَ في الماءِ ؟

## أوّلاً : أدلّة التفكُّرِ :

### من خلالِ الكتابِ والسنةِ ، وأقوالِ الصحابةِ والتابعين .

ففي الكتاب قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ـ١٩١] .

﴿ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فعلٌ مضارعٌ يفيدُ الخبرَ ، لكنّ الخبرَ يأتي في القرآنِ الكريمِ في معرضِ الإنشاءِ والأمرِ ، فإذا قال الله عز وجل : ﴿ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ [الفرقان : ٦٨] ، أي : إيّاكم أنْ تزنوا ، فإنّ نفيَ الشيء أبلغُ من النهيِ عنه ، فإذا نهيتَ عن الشيءِ فكأنك تضعُ في ذهنِ الإنسانِ تصوُّرَ فِعْلِه ، لكن إذا نفيتَه كان النفيُ أبلغَ ، قال تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، ولم يقلْ : يا أيها الوالداتُ أرضعنَ أولادكنّ ، لأنه من شأنِ الوالداتِ إرضاعُ أولادهنّ ، فهذا خبرٌ جرَى مجرى الإنشاءِ والأمرِ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي : إنّ المؤمنين من

شأنهم التفكُّرُ في خَلْقِ السماواتِ والأرضِ ، وهو لازمٌ من لوازمِهم ، وخصيصةٌ من خصائصِهم ، وسِمَةٌ من سماتِهم .

في صحيح ابن حبّان عن عطاءٍ أنّ عائشةَ رضي الله عنها قالت : أتاني رسول الله ﷺ في ليلتي ، وقال : « يَا عَائِشَةُ ، ذَرِينِي أَتَعَبَّدُ لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَامَ إِلَى القِرْبَةِ فَتَوَضَّأَ مِنْهَا ، ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي ، فَبَكَى حَتَّى بَلَّ لِحْيَتَهُ ، ثُمَّ سَجَدَ حَتَّى بَلَّ الأَرْضَ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلَى جَنْبِهِ ، حَتَّى أَتَى بِلاَلٌ يُؤْذِنُهُ بِصلاَةِ الصُّبْحِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَا يُبْكِيكَ ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ! ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ : وَيْحَكَ يَا بِلاَلُ! وَمَا يَمْنَعُنِي أَنْ أَبْكِيَ ، وَقَدْ أَنْزَلَ اللهُ عَلَيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ، وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا ، وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا »[1] .

قيل للأوزاعي : « ما غايةُ التفكُّرِ فيهنّ ؟ قال : يقرأُهنّ ويعقلُهنّ » .

ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ : « أَمَرَنِي رَبِّي أَنْ يَكُونَ صَمْتِي فِكْراً ، وَنُطْقِي ذِكْراً ، وَنَظَرِي عِبْرَةً »[2] .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي

---

(١) صحيح ابن حبان ( ٦٢٠ ) .

(٢) رواه القضاعي في مسند الشهاب ( ١١٥٩ ) ، وقال الذهبي في ميزان الاعتدال ( ٦/ ١٥١ ) : « هذا حديث معضل » ، وذكره القرطبي في تفسيره ( ٧/ ٣٤٦ ) .

النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلاَّ أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيْهِ لاَسْتَهَمُوا ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لاَسْتَبَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْواً »[١] .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ ، ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَامَّةٍ ، تَامَّةٍ ، تَامَّةٍ »[٢] .

أليس التفكُّرُ من الذِّكرِ ؟ فإذا صلّى الإنسانُ الفجرَ ، وقرأَ شيئاً من القرآنِ ، وتفكّرَ في آيةٍ من آياتِ اللهِ ، ثم ذَكَرَ اللهَ تعالى كان له الأجرُ الكبيرُ من الله عزّ وجلّ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : إن قوماً تفكروا في الله عز وجل فقال ﷺ : « تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِ اللهِ ، وَلاَ تَفَكَّرُوا فِي اللهِ ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا قَدْرَهُ »[٣] .

إذاً التفكرُ في ذاتِ اللهِ ممنوعٌ ، وحرامٌ ، ومهلِكٌ ، والتفكّرُ في مخلوقاتِ اللهِ فريضةٌ من أرقى الفرائضِ .

---

(١) رواه البخاري ( ٥٩٠ ) ، مسلم ( ٤٣٧ ) ، الترمذي ( ٢٢٥ ) ، أحمد ( ٧٧٢٤ ) .

(٢) الترمذي ( ٥٨٦ ) .

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ( ٢٣١٨ ) .

وعن النبيِّ ﷺ أنه خرج على قومٍ ذاتَ يومٍ وهم يتفكّرون ، فقال : « مَالَكُمْ لاَ تَتَكَلَّمُونَ ؟ ـ وهذا اسمُه في البلاغةِ تجاهلُ العارفِ ـ فَقَالُوا : نَتَفَكَّرُ فِي خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَقَالَ ﷺ : فَكَذَلِكَ فَافْعَلُوا ، تَفَكَّرُوا فِي خَلْقِهِ ، وَلاَ تَتَفَكَّرُوا فِيهِ »[1] .

قال أحد التابعين : « ركبتُ إلى أمّ ذرٍّ بعد موت أبي ذرٍّ ، فسألتُها عن عبادةِ أبي ذرٍّ فقالت : « كان نهارُه في ناحيةِ البيتِ يتفكّرُ » .

وعن الحسن : « تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ » .

وعن الفضيل : « الفكرُ مرآةٌ ، تريك حسناتِك وسيئاتِك » .

وقيل لإبراهيم : « إنك تطيلُ الفكرَ ، فقال : الفكرُ مخُّ العقلِ » .

وكان سفيانُ بن عيينةَ يقول هذا البيتَ :

إذا المرءُ كانت له فكرةٌ ففي كلِّ شيء له عبرة

والإمامُ الحسنُ يقول : « من لم يكن كلامُه حكمةً فهو لغوٌ ، ومن لم يكن سكوتُه تفكّراً فهو سهوٌ ، ومن لم يكن نظرُه اعتباراً فهو لهوٌ » .

---

(١) تفسير ابن كثير ( ٤ / ٣٨٦ ) .

يقول أحدُ التابعين : « ما طالت فكرةُ امرئٍ قطُّ إلا علِمَ ، وما علِمَ امرؤٌ قطُّ إلا عملَ » .

وقال عمرُ بن عبد العزيز : « الفكرةُ في نعمِ اللهِ عز وجل من أفضلِ العبادةِ » .

قال بِشرٌ : « لو تفكَّرَ الناسُ في عظمةِ اللهِ ما عصوا اللهَ عز وجل » .

إذاً المعصيةُ أساسُها عدمُ الخشية ، وعدمُ الخشيةِ أساسُه عدمُ العلمِ ، فالأمرُ يدور بين علمٍ ، فخشيةٍ ، فطاعةٍ ، أو جهلٍ ، فعدمِ خشيةٍ ، فمعصيةٍ .

يقول أبو سليمان الداراني : « عوِّدوا أعينَكم البكاءَ ، وقلوبَكم التفكّرَ » .

قال بعضهم : « الفكرُ في الدنيا حجابٌ عن الآخرةِ ، والفكرُ في الآخرةِ يورثُ الحكمةَ ، ويحيا القلبُ به » .

## التفكُّرُ : علمٌ وحالٌ وعملٌ :

إنك إنْ تفكّرتَ علمتَ ، وإن علمتَ نشأَ في قلبك حالٌ ، هذا الحالُ يدفعك إلى العملِ ، فالفكرُ أساسُ المعرفةِ ، والمعرفةُ أساسُ الانفعالِ ، والانفعالُ أساسُ السلوكِ ، فإن صحّتْ فكرتُك صحَّ إدراكُك ، وصحّ انفعالُك ، وصحّ عملُك ، ودخلتَ الجنّةَ .

القلبُ يطمئنُّ بذكرِ الله ، لكنّ الفكرَ يزيدُ المرءَ علماً .

لو افترضنا أن شمعةً على الطاولةِ ، وإلى جانبها عودُ ثقابٍ ، والغرفةُ مظلمةٌ ، وهناك على الطاولةِ قطعٌ من الأحجارِ ، وقطعةٌ من الماسِ ، وثمنُ هذه القطعةِ مئاتُ الألوفِ ، إنك إنْ أمسكتَ عودَ الثقابِ ، وأشعلتَ هذه الشمعةَ استنارَ المكانُ ، فرأيتَ الماسَ ، ففرحت فرحاً عظيماً ، فتحركتَ نحوه فالتقطتَه ، فسعدتَ به ، وهذا هو الترتيبُ الطبيعيُّ ، التفكّرُ يحتاج إلى تذكّرٍ ، والتفكرُ يوصلُ إلى العلمِ ، والعلمُ يوصلُ إلى الحالِ ، والانفعالُ يولِّدُ العملَ ، والعملُ ثمنُ الجنةِ ، فالبدايةُ من التفكّرِ .

إنسانٌ مرتاحٌ في بستان ، نظرَ فإذا بأفعى ، انطبعتْ صورةُ هذه الأفعى على الشبكيّةِ ، التي نقلَتْها إلى الدماغِ ، هنا حصلَ الإحساسُ ، وفي الدماغِ الإدراكُ ، لما أدركَ قفزَ هارباً ، علاقةُ الإنسانِ بالمحيطِ الخارجيّ وَفقَ قانونٍ ؛ ثلاثُ كلمات ؛ إدراكٌ ، وانفعالٌ ، وسلوكٌ .

إذا حصلَ العلمُ في القلبِ تغيّرَ حالُ القلبِ ، وإذا تغيّرَ حالُ القلبِ تغيّرتْ أعمالُ الجوارحِ ، فالعملُ تابعٌ للحالِ ، والحالُ تابعٌ للعلمِ ، والعلمُ تابعٌ للتفكّرِ ، والتفكُّرُ تابعٌ للتذكّرِ ، تذكّرٌ ، فتفكّرٌ ، فعلمٌ ، فحالٌ ، فعملٌ ، ثم جنةٌ بعد ذلك .

## مهمّةُ التفكّرِ :

إنّ معرفةَ الله تعالى من أصولِ الدين ، ويُعرَفُ اللهُ من خلالِ التفكّرِ في خَلقه ، ( الآيات الكونية ) ، ويُعرَف من تدبُّرِ كلامِه ، ( الآيات القرآنية ) ، ويُعرَف من النظرِ في أفعاله ، ( الآيات التكوينية ) .

والتفكّرُ هو أوسعُ باب ندخل منه إلى الله ، وأسرعُ طريقٍ للوصول إليه ، إنه يعني أنْ يعرفَ الإنسانُ ربّه ، وكلما ازدادت معرفتُه بالله ازدادتْ طاعتُه له ، وازدادت خشيتُه له ، وازداد إقبالُه عليه ، وازداد رجاؤُه لرحمته ، وازداد عملُه للجنةِ ، واتقاؤُه للنارِ ، فبقدرِ معرفتك باللهِ تنصاعُ لأمرِه ، والتفكّرُ يرفعُ مستوى المعرفةِ .

يُعجبُ الإنسانُ أحياناً بآلةٍ ، أو بحاسوبٍ ، أو بطائرةٍ ، وعندها يعظّمُ الصانعَ ، ويشعرُ أنّ المصنِّع على مستوىً ذوقيٍّ رفيع جداً ، وعلى مستوىً من الدقّةِ بالغٍ جداً ، وعلى مستوى من العلمِ عالٍ جداً ، فأهلُ الدنيا يُعظِّم بعضُهم بعضاً ، أمّا المؤمنُ فيُعظِّمُ ربَّ الكونِ من خلالِ خَلقْه ، الإنسانُ يأكلُ ، ويشربُ ، وينتفعُ بالكونِ ، ولكنه لا ينسى أنْ يُطالعَ ما في الكونِ من آياتٍ ، كالأمطارِ ، والسحبِ ، والجبالِ ، والأنهارِ ، والبحيراتِ ، وأنواعِ الخضراوات والفواكهِ ، هذه كلّها بين يديه .

## الكونُ مسخَّرٌ لنا مرّتين :

الكونُ بكلّ ما فيه مسخَّرٌ لنا مرّتين ، تسخيرَ تعريفٍ ، وتسخيرَ تكريمٍ ، له مهمّةٌ تعريفيّةٌ ، ومهمّةٌ نفعيّةٌ ، أمّا العالَمُ الغربيّ فقد برعَ أيّما براعةٍ في الانتفاعِ بالكونِ ، لكنّ وظيفةَ الانتفاعِ إذا قيستْ بوظيفةِ التعريفِ ليست بشيءٍ ، لأنّ الانتفاعَ ينتهي عند الموتِ ، لكنّ وظيفةَ التعريفِ لا تنتهي ، بل تنفعُ الإنسانَ إلى أبد الآبدين ، وفي الحديث الشريف عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلاَلَ قَالَ : هِلاَلُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلاَلُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، هِلاَلُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ ، آمَنْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ ، ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ يَقُولُ : الْحَمْدُ للهِ الَّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا ، وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا »[1] .

أي : هذا الهلالُ يُرشدني إلى اللهِ ، وينفُعني في الدنيا ، فحينما نستغلُّ الهلالَ للانتفاع به بقي أنْ نستغلّ مهمّتَه في التعريفِ باللهِ عز وجل .

لو افترضنا أنّ إنساناً ثريّاً يمكنُ أنْ يأكلَ العسلَ كلَّ يوم ، هذا الإنسانُ استطاعَ أنْ يستفيدَ من العسلِ الفائدةَ الدنيويّةَ المحدودةَ!

وإنسانٌ آخرُ لا يسمحُ له دخْلُه المحدودُ أنْ يأكلَ العسلَ إطلاقاً ، إلاّ أنه قرأ مقالةً ، أو سمعَ حديثاً عن فوائدِ العسلِ ، وعن عظيمِ

---

(١) أبو داود ( ٥٠٩٢ ) عن قتادة ، والطبراني في الأوسط ( ٣١١ ) عن أنس ، وفي الكبير ( ٤٤٠٩ ) عن رافع بن خديج .

صنعِ اللهِ فيه ، فاقشعرَّ جِلدُه ، ودمعتْ عينُه من خشيةِ الله ، لقد حقّق الهدفَ الأسمى من خَلْقِ العسلِ ، لقد حقّقَ الفائدةَ الأخرويّةَ الأبديّةَ .

حاولْ ألاّ تفوّت على نفسِك أيَّ مشهدٍ من هذا الكونِ قبْل أنْ تستفيدَ منه الفائدةَ التي خُلِقَ من أجلِها ، فكلُّ مخلوقٍ على وجهِ الأرضِ مسخَّرٌ لك ، ولفائدتين : دنيويّةٍ محدودةٍ ، وأخرويّةٍ أبديّةٍ .

فإياك أنْ تشربَ كأسَ ماءٍ قبل أنْ تنظرَ في عظمةِ خَلقِ الماءِ ، وإيّاك ألاّ تحمدَ اللهَ بعدَ ذلك على نعمةِ الماءِ .

إنك إنْ شربتَ الماءَ فحسبُ فقد رضيتَ بالنزرِ اليسيرِ ، وقنعتَ بفائدةٍ محدودةٍ تنتهي عند العطشِ من جديدٍ ، ولربّما صحّ لنا أن نقيسَ على ما وردَ عن سيدنا عمرَ أنه أمسك تفاحةً ثم قال : « أكلتُها ذهبتْ ، أطعمتُها ـ أي تصدقتُ بها ـ بقيتْ » ، وكذلك نقول : إنك إن أكلتَ التفاحةَ دون أن تذكّركَ بخالقِها فقد فنِيَتْ ، وإن ذكّرتكَ بالله فقد بقيتْ ، وأخذتَ منها الفائدةَ الأخرويّةَ الدائمةَ التي تعلو كثيراً على فائدةِ الغذاءِ الدنيويّةِ المؤقّتةِ .

## سؤالٌ وجوابٌ :

لو قال أحدُهم : إنّ كلَّ عملِي في العلمِ ، فأنا طبيبٌ ، وعندي اطّلاعٌ دقيقٌ جداً على خَلقِ الإنسانِ ، أليس هذا تفكراً ؟ فبماذا نجيبُه ؟

هؤلاء العلماءُ الكبارُ الذين يرون في مخابرهم من آياتِ اللهِ الدالّةِ على عظمتِه الشيءَ الذي لا يكاد يُصدَّقُ ، فهناك سُفنُ أبحاثٍ مصفَّحةٌ ، معها أضواء كاشفةٌ ترى بأمّ عينك في خليجِ مريانةَ ، الذي يبلغُ عمقُه اثني عشرَ ألفَ مترٍ في المحيطِ الهادي ، ترى أنواعَ الأسماكِ ، والكائنات والنباتات البحريةِ ، والذين وصلوا إلى القمرِ رأوا الأرضَ كرةً ، وصوَّروها ، وهؤلاء الذين يرون الكائناتِ الدقيقةَ في المخابرِ الحديثة ، وهؤلاء الذين يرون المجراتِ العملاقةَ في التلسكوباتِ الفلكيةِ ، وهؤلاء الذين يكبِّرون النسجَ البشريةَ ، فإذا منظرُ النسيجِ البشريّ شيءٌ لا يكاد يُصدّقُ ، هؤلاء لِمَ لمْ يؤمنوا ؟ لِمَ لم تخشعْ قلوبهم لذكرِ اللهِ ؟ لِمَ لا يعرفون اللهَ ، وهم يقفون أمامَ آياتٍ باهراتٍ ؟

إن الجواب بسيطٌ جداً : لو كان للإنسانِ هدفٌ غيرُ معرفةِ اللهِ عز وجل فإنك لو وضعتَ أمامه آلافَ الآياتِ لا يرى منها شيئاً ، فهناك في الطبّ والفيزياءِ والكيمياءِ آياتٌ كثيرةٌ تَدَعُ الحليمَ حيرانَ ، ومع ذلك لا يتأثّرُ المختصّون بها ، والسببُ أنهم يهدفون إلى شيءٍ آخرَ ، فالإنسانُ لا يرى إلا حاجَته ، ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾

[الجاثية : الآية ٢٣] .

إنّ الذي يبحثُ عن شهوته ، يبحثُ عن مالٍ وفيرٍ ، وجاهٍ عريضٍ

لا يرى الحقائقَ ، شأنُه شأنُ آلةِ تصويرٍ غاليةٍ جداً ، ولكن لا يوجد فيها ( فيلم ) ، قد تلتقطُ أجملَ المناظرِ ، ولكنْ لعدمِ وجودِ ( الفيلم ) لا ينطبعُ عليها شيءٌ .

هؤلاء الأشخاصُ يعيشون مع حقائقَ عجيبةٍ ، ولكنّ هذه الحقائقَ لا تنقلهم إلى اللهِ ، لأنهم ما أرادوا أن يعرفوا اللهَ ، فمن أجلِ أن نخزّنَ الصورَ لا نستفيدُ من آلةٍ غاليةِ الثمنِ بلا ( فيلم ) ، ونستفيدُ من آلةٍ رخيصةٍ جداً مع ( فيلم ) .

التفكّرُ عمليةٌ فكريةٌ تحتاجُ إلى موادَّ أوليةٍ ، لو افترضنا أن إنساناً قرأَ موضوعاً عن الطيورِ ، هذا الموضوعُ ليس تفكّراً ، وقراءةُ هذا الموضوعِ ليست تفكّراً ، ولكنه موادُّ أوليةٌ للتفكرِ تحتاجُ إلى تصنيعٍ ، التفكّرُ في خلقِ الله هو القفزةُ نحو الأعلى ، فالتفكرُ بلا بضاعةٍ لا يقدّم شيئاً ، والبضاعةُ بلا تفكّرٍ لا تقدِّم شيئاً ، الغربُ عندهم بضاعةٌ بلا تفكّرٍ ، عندهم حقائقُ دقيقةٌ عن الكونِ ، ولهم مؤلَّفاتٌ تذهبُ بالعقولِ .

التفكير يعني أنْ تملكَ معلوماتٍ عن الكونِ ، ومن خلالِ هذه المعلوماتِ تقفزُ إلى معرفةِ اللهِ عز وجل .

* * *

# كيف نقرأُ الكونُ ؟

ينبغي أن نقدِّرَ اللهَ حقَّ قدْرِه عن طريقِ العلمِ ، وقد عبّر اللهُ جلَّ جلاله عن العلمِ بمفتاحِه ، وهو فعل : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ [العلق : ١] ، وفي اللغةِ أنّ الفعلَ إذا حُذف مفعولُه أُطلق معناه ، فنقرأ في كتابِ اللهِ ، أو في بيانِ المعصومِ ﷺ ، أو في كتابِ الكونِ ، فالكونُ قرآنٌ صامتٌ ، والقرآنُ كونٌ ناطقٌ ، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي ، لذلك كانت أولُ آيةٍ في القرآنِ الكريمِ : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ .

الأصلُ الأولُ في هذه القراءةِ : أنْ تكونَ قراءةً إيمانيةً تنتهي إلى الإيمانِ بالله ، موجوداً ، وواحداً ، وكاملاً ، خالقاً ، ومربّياً ، ومسيّراً ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾[العلق : ١] ، وهذه القراءةُ مقدورٌ عليها ، بدليلِ أنها تنطلقُ من أقربِ شيءٍ إلى الإنسانِ ، من نفسِه التي بين جَنْبَيْه ، قال تعالى : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ١-٢] .

أمّا الأصلُ الثاني لهذه القراءةِ : فهو أن تكونَ قراءةَ شكرٍ وعرفانٍ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ [العلق : ٣] ، أساسُها شكرُ المُنعِمِ على نعمةِ الإيجادِ ، ونعمةِ الإمدادِ ، ونعمةِ الهدى والرشادِ ، لقد

خلقَ اللهُ الإنسانَ ليسعِدَه في الدنيا والآخرةِ ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾ [هود : ١١٩] .

القراءةُ الأولى : قراءةُ إيمانٍ .

والثانية : قراءةُ شكرٍ وعرفانٍ .

لقد سخّر اللهُ الكونَ لهذا الإنسانِ تسخيرَ تعريفٍ وتكريمٍ ، أمّا تسخيرُ التعريفِ فكلُّ ما في السماوات والأرضِ ينطقُ بوجودِ اللهِ ووحدانيته وكمالِه ، ويشفُّ عن أسمائِه الحسنى وصفاتِه الفضلى ، وهو مجالٌ رحبٌ للتفكّرِ في خَلقِ السماواتِ والأرضِ ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] ، أي : إنّ تقديرَ الله حقَّ قدْرِه طريقُه التفكّرُ في خَلقِ السماواتِ والأرضِ ، لذلك قال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية ١٣] ، هذا تسخيرُ التعريفِ .

وأما تسخيرُ التكريمِ فقد قال تعالى : ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

إنّ من الواجبِ على الإنسانِ تجاهَ تسخيرِ التعريفِ أنْ يؤمنَ ، وتجاهَ تسخيرِ التكريمِ أنْ يشكرَ ، فإذا آمنَ وشكرَ فقد حقّقَ الغايةَ من

وجودِه ، لذلك يتوقّفُ التأديبُ والمعالجةُ ، يقولُ الله عزّ وجل : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] .

وأمّا الأصلُ الثالثِ لهذه القراءةِ : فهو قراءةُ الوحيِ والتلقّي ، فمعرفةُ طرفٍ من حقيقةِ الذاتِ الإلهيّةِ ، وكمالِها المطلقِ ، ومعرفةُ الماضي السحيقِ ، والمستقبلِ البعيدِ ، ومعرفةُ حقيقةِ الحياةِ الدنيا والحياةِ الآخرةِ ، ومعرفةُ حقيقةِ الإنسانِ ، وسرِّ وجودِه ، وغايةِ وجودِه ، ومعرفةُ حقيقةِ النبوّاتِ والرسالاتِ ، ومعرفةُ حقيقةِ المنهجِ ودقائقِهِ ، ومفرداتِ التكاليفِ وتفاصيلِها ، هذا كلُّه يُؤخَذ من الوحيين ؛ الكتابِ والسُّنةِ ، وهذا مما يستنبطُ من قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٥] .

ولكن لا يعني هذا الكلامُ أنّ المسلمين اليومَ يقرؤون هذه القراءاتِ الثلاثَ ، ولو فعلوا لما استطاعَ أحدٌ أن ينالَ منهم ، ولكنْ هذا من قَبيلِ ما ينبغي أنْ يكونَ ، لا ما هو كائنٌ .

أما إذا قرأَ الإنسانُ ما في الكونِ قراءةً نفعيّةً ، ليس غيرُ ، وابتعدَ عن هذه القراءاتِ الثلاثِ كان الطغيانُ والعدوانُ ، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦-٧] ، وهذا طغيانُ العلمِ الذي يقودُ الإنسانَ الذي قرأ هذه القراءةَ النفعيّةَ بعيداً عن الإيمانِ والعرفانِ ، يقوده هذا العلمُ إلى القوّةِ والطغيانِ ، فيبني مجدَه على أنقاضِ

الآخرين ، ويبني غناه على فقرِهم ، وحياتَه على موتِهم ، وقوّتَه على ضعفِهم ، وأَمْنَه على خوفِهم ، وعزّه على ذلّهم ، وبهذا يكون قد طغى بالعلمِ ، واستخدمَه لغيرِ ما أُريدَ منه .

وقد ضربَ اللهُ لنا مثلاً في القرآنِ الكريمِ قومَ عادٍ كنموذجٍ متكرّرٍ لهذا الإنسانِ الذي قرأَ قراءةً نفعيّةً ، فطغى ، وبغى ، ونسي المبتدى والمنتهى ، ونسي الجبّارَ الأعلى ، فعادٌ تفوّقتْ في شتّى الميادينِ ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾ [الفجر : ٦ـ٨] .

وعادٌ تفوّقتْ في العمرانِ والحصونِ والمنشآت ، قال تعالى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ۝١٢٨ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ [الشعراء : ١٢٨ـ١٢٩] .

وعادٌ تفوّقتْ بالقوةِ العسكريةِ ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء : ١٣٠] .

وعادٌ تفوّقتْ بالناحيةِ العلميةِ ، ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَـٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٨] .

ولم يكن فوقَ عادٍ إلا اللهُ ، بدليلِ أنّ اللهَ ما أهلكَ قوماً إلا وذكّرهم أنه أهلكَ مَن هم أشدُّ منهم قوّةً ، إلا عاداً حين أهلكها قال : ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت : ١٥] .

وعادٌ بسببِ تفوّقِها وبُعْدِها عن اللهِ ، وقراءتِها لِما في الكونِ قراءةً نفعيّةً تكبّرتْ بغيرِ حقٍّ ، واستعلتْ ، وتغطرستْ ، وبَغَتْ ، لا في بلدِها فحسبُ ، بل في كلّ البلادِ ، قال تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت : ١٥] .

فماذا كانت محصِّلةُ هذا التفوّقِ المادي ؟ لقد طغوا في البلادِ ، والطغيانُ مجاوزةُ الحدّ بالعدوانِ ، ولم يقل : طغوا في بلدهم ، بل قال : ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر : ١١] ، أي : في البلادِ كلِّها ، ليصفَ طغيانَهم بالشمولِ ، وأنهم أكثروا فيها الفسادَ ، ولم يقل : فسدوا ، ليبيّنَ أنّ إفسادَهم عمّ الأرضَ .

والحديثُ عن مصيرِ عادٍ في القرآنِ الكريمِ لا يخصّ عاداً الأولى ، بل يتجّهُ إلى كلّ قومٍ سلكوا مسلكَ عادٍ ، فقومُ عادٍ نموذجٌ متكرّر ، بدليلِ أنّ اللهَ تعالى يقول : ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم : ٥٠] ، وهذا يعني فيما يعني أن هناك عاداً ثانيةً ، أو انتظروا عاداً ثانيةً ، لقد كان تأديبُهم بالأعاصيرِ التي تدمّر كلَّ شيءٍ أَتَتْ عليه ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة : ٦ـ٧] .

فماذا كانت النتيجةُ ؟ قال عزوجل ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر : ١٣ـ ١٤] ، أي : بالمرصادِ لكلّ مَن يكونُ على شاكلةِ عادٍ مِن أممِ الأرضِ .

* * *

# أسبابُ التّقصيرِ في حياةِ المسلمين

لو سألَ أحدُنا نفْسَه سؤالاً : لماذا أنا مقصّرٌ ؟ لماذا أقترفُ بعضَ الأخطاءِ ؟ لماذا لستُ على ما ينبغي من الورعِ ؟ نقول له : هناك نقصٌ في معرفةِ اللهِ .

لأنّ الإنسانَ حينما يعرفُ الآمرَ ، ثم يعرفُ الأمرَ يتفانى في طاعتِه ، لكنه إنْ عرفَ الأمرَ ، ولم يعرفِ الآمرَ تفنَّنَ في التفلُّتِ من الأمرِ .

وحينما يعلمُ الإنسانُ أنّ علْمَ اللهِ يطولُه ، وأنّ قدْرتَه تطولُه فلابد من أنْ يطبِّقَ أمْرَه .

أبسطُ مثالٍ على ذلك إشارةُ المرورِ الحمراءُ تمنعُ السائقين مِن تجاوزِها ، لأنّ علْمَ واضع قانون السير يطول المخالف عن طريق الشرطي ، وقدرة الشرطي تطولُه عن طريقِ سلطة القانونِ .

ولكنْ متى يستطيعُ السائقُ أنْ يتجاوزَ الإشارةَ ؟ في حالتين : عند الساعةِ الثانيةِ ليلاً ، حيث لا يطولُه علمُ الشرطةِ ، أو لو أنه كان ـ مثلاً ـ أقوى من واضعِ القانونِ ، إذ لا تطولُه قدْرتُه .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ

بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾

[الطلاق : ١٢] .

إنّ علّةَ خَلْقِ السماواتِ والأرضِ وما بينهما أنْ يعلمَ الإنسانُ أنّ قدرةَ اللهِ تطولُه ، وأنّ علْمَه يطولُه ، وعندها لنْ يعصيَه .

لقد هان أمرُ اللهِ على المسلمين فهانوا على اللهِ ، ولماذا هانَ أمرُ اللهِ عليهم ؟ لأنهم ما عظّموا اللهَ عز وجل ، ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة : ٣٠ـ٣٣] .

كان مؤمناً باللهِ ، ولكنه ليس مؤمناً باللهِ العظيمِ .

* * *

# بين العبادةِ والعلمِ

ثمّةَ أستاذٌ في الجامعةِ له حاجبٌ يعملُ في هذه الجامعةِ منذ ثلاثين عاماً ، وكلّما دخلَ هذا الأستاذُ إلى الجامعةِ وقفَ الحاجبُ ، ورحّبَ به ، ثم جلسَ .

والسؤال : هل تزدادُ معرفةُ الحاجبِ بهذا الأستاذِ طوالَ تلك الأعوامِ! ؟

أمّا الطالبُ الذي يحضرُ المحاضراتِ عند هذا الأستاذِ فإنه تزدادُ معرفتُه بمدرِّسِه كلّما حضرَ عنده درساً .

وكذلك الإنسانُ لو أنه اكتفى بعبادتِه لله زمناً طويلاً ، فإنّ مقاوَمته تكون هشّةً ، ولا يصمدُ أمام الإغراءِ ، ولا أمام الضغوطِ ، أمّا المؤمنُ إذا عرفَ اللهَ عز وجل فلا يمكن أنْ تغيِّرَ موقفَه سبائكُ الذهبِ اللامعةُ ، ولا سياطُ الجلادين اللاذعةُ ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « فَقِيهٌ وَاحِدٌ أَشَدُّ عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ »[1] .

* * *

(١) الترمذي ( ٢٦٨٢ ) ، ابن ماجه ( ٢٢٢ ) ، واللفظ له .

# طرائقُ التفكّرِ من القرآنِ الكريم

أولاً : التفكّرُ في الشيءِ وأصلِه : قال تعالى : ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ [العلق : ٢] .

ثانياً : التفكّرُ في الشيءِ وعدمِه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ [الملك : ٣٠] ، تصور بلداً بلا ماء ، ما قيمته ؟

ثالثاً : التفكّرُ في الشيءِ وخلافِ ما هو عليه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ [القصص : ٧١] .

مثالٌ عمليٌّ :

إذا أردتَ أن تفكّرَ صباحاً في آياتِ اللهِ عز وجل ، واخترتَ آيةً من هذه الآياتِ ، ولتكن العين مثلاً : فكّر مِن أين نشأتْ هذه العينُ ؟ وكيف تكوّنت شبكيتُها وقزحيتُها ؟ وما إلى هنالك ، لقد كان الإنسانُ كلُّه ـ يوماً ـ علقةً في جدارِ الرحمِ .

ثم فكِّرْ في إنسانٍ بلا بصرٍ ؛ لو أنّ اللهَ عز وجل خَلَقَنا بلا عينين

ما قيمةُ الألوانِ ؟ ما قيمةُ الأزهارِ والأطيارِ ؟ ما قيمةُ الجمالِ كلّه بلا هاتين العينين ؟

ثم فكّرْ كيف يكونُ الأمرُ لو لم يكن للإنسان إلا عينٌ واحدةٌ ، أو لو لم تكن العينُ في مكانها الآمنِ ، فكّر لو أنها كانت في مكانٍ آخرَ ، في الصدرِ مثلاً ، أو في الظهرِ ، أو خلفَ الرأسِ .

## نماذجُ حياتيّةٌ للتفكّرِ[1] :

إليك هذه النماذج المادية الملموسة للتفكر .

### ١ـ جسمُ الإنسانِ :

هناك في حياةِ كلٍّ منّا آياتٌ معجزةٌ صارخةٌ دالّةٌ على عظمةِ اللهِ عزّ وجل ، منها جسمُنا الذي هو أقربُ شيءٍ إلينا ، ففي رأسِ كلٍّ منا ثلاثمئة ألفِ شعرةٍ ، لكلِّ شعرةٍ بصلةٌ ، ووريدٌ وشريانٌ ، وعضلةٌ وعصبٌ ، وغدةٌ دهنيةٌ ، وغدةٌ صبغيةٌ .

وفي شبكيةِ العينِ عشرُ طبقاتٍ ، فيها مئةٌ وثلاثون مليونَ مستقبِلٍ للضوءِ ، ما بينَ مخروطٍ وعُصَيّةٍ ، ويخرجُ من العينِ إلى الدماغِ عصبٌ بصريٌّ ، يحوِي خمسمئة ألفِ ليفٍ عصبيٍّ .

وفي الأذنِ ما يشبهُ شبكةَ العينِ ، فيها ثلاثونَ ألفَ خليةٍ سمعيةٍ لنقلِ أدقِّ الأصواتِ .

---

(١) للاستزادة من آيات الله في الكون والإنسان راجع كتاب « الإعجاز العلمي في الكتاب والسنة » للمؤلف .

وفي الدماغِ جهازٌ يقيسُ التفاضلَ الزمنيَّ لوصولِ الصوتِ إلى كلٍّ مِن الأذنينِ ، وهذا التفاضلُ يقلُّ عن جزءٍ مِن ألفٍ وستمئة جزءٍ من الثانيةِ ، وهو يكشفُ للإنسانِ جهةَ الصوتِ .

وعلى سطحِ اللسانِ تسعةُ آلافِ نتوءٍ ذوقيّة ، لمعرفةِ الطعمِ الحلوِ ، والحامضِ ، والمُرِّ ، والمالحِ ، ثم تنقلُ هذا الطعمَ إلى الدماغِ .

وإنّ كلَّ حرفٍ ينطقُ به اللسانُ يسهمُ في تكوينِه سبع عشرَةَ عضلةً .

مَن يصدِّق أنّ في مخاطيةِ الفمِ ، أعني الغشاءَ الداخلي للفمِ خمسمئةِ ألف خلية ! ؟ يموتُ في كلِّ خمسِ دقائقَ نصفُ مليونِ خليةٍ في الجدارِ الداخلي ، ليحلّ محلَّها نصفُ مليونِ خليةٍ جديدةٍ .

إنّ كرياتِ الدمِ الحمراءَ لو صُفَّ بعضُها إلى جانبِ بعضٍ لزاد طولُها على محيطِ الأرضِ ستةَ أضعافٍ .

إنّ في كلِّ ميليمتر مكعبٍ من الدمِ خمسةَ ملايين كريةٍ حمراء ! ؟ وإنّ كلَّ كريةٍ حمراءَ تجولُ في الدمِ في اليومِ الواحدِ ألفاً وخمسمئة جولةٍ ، تقطع فيها ألفاً ومئةً وخمسين كيلو متراً .

يضخُّ القلبُ مِنَ الدمِ في عمرٍ متوسّطٍ ما يملأ أكبرَ ناطحاتِ سحابٍ في العالَمِ ، وينبض في الدقيقةِ الواحدةِ مِن ستينَ إلى ثمانينَ خفقةً ، وينبض يومياً مئةَ ألف مرة ، يضخُّ مِن خلالِها ثمانيةَ آلاف

لتر ، والمئتا لتر تعادلُ برميلاً! وقد أجرى بعضُ العلماءِ حساباً عن ضخِّ القلب للدم في العمرِ فوجده ستةً وخمسين مليون جالون ، والجالونُ يعادلُ خمسة ألتار .

يستهلكُ الإنسانُ في الثانية الواحدةِ مئةً وعشرين مليونَ خليةٍ .

في دماغِ الإنسانِ أربعةَ عشرَ مليارَ خليةٍ قشريةٍ ، ومئةُ وأربعون مليارِ خليةٍ استناديةٍ لم تُعرفْ وظيفتُها بعدُ ، وهو أعقدُ ما فيه ، ومع ذلك فهو عاجزٌ عن فهمِ ذاتِه .

وفي الرئتين سبعمئة مليون سنخٍ رئويٍّ ، كعنقود العنب ، حبةُ العنبِ في الرئةِ كأنها سنخٌ رئويٌّ ، وهذه الأخيرةُ لو نُشِرتْ لاحتلَّتْ مساحةَ مئتيْ متر مربّعٍ ، وإن هاتين الرئتين تخفقان في اليومِ خمساً وعشرينَ ألف مرة ، وتستنشقان مئةً وثمانين متراً مكعباً .

وفي الكبدِ ثلاثمئةِ مليارِ خليةٍ ، يمكن أن تُجَدَّدَ كلياً خلالَ أربعةِ أشهرٍ ، ووظائفُ الكبدِ كثيرةٌ ، وخطيرةٌ ، ومدهشةٌ ، حيث لا يستطيعُ الإنسانُ أنْ يعيشَ بلا كبدٍ أكثرَ من ثلاثِ ساعاتٍ .

إنّ في جدارِ المعدةِ مليارَ خليةٍ تفرزُ من حمضِ كلورِ الماءِ ما يزيدُ على عدةِ لتراتٍ في اليوم الواحدِ ، وقد جهدَ العلماءُ في حلِّ هذا اللغزِ ، لمَ لا تَهضمُ المعدةُ نفسَها ؟ أليستِ المعدةُ معجزةً! ؟ .

وفي الأمعاءِ ثلاثةُ آلافٍ وستمئة زغابةٍ معويةٍ للامتصاصِ في كل سنتمترٍ مربعٍ ، وهذه الزغاباتُ تتجدّدُ كلياً كلَّ ثمانٍ وأربعين ساعةً .

وفي الكُليتين مليونا وحدةٍ تصفيةٍ ، طولُها مجتمعةً مئةُ كيلو مترٍ ، يمرُّ فيها الدمُ في اليومِ الواحدِ خمسَ مراتٍ .

وتحتَ سطحِ الجلدِ خمسةَ عشرَ مليونَ مكيّفٍ لحرارةِ البدنِ ، وهي الغددُ العرقيةُ ، لكلّ غدّةٍ عرقيةٍ مكيِّفٌ لتكييفِ حرارتِه ، وتعديلِ رطوبتِه .

إن جسمَنا الذي نحنُ نعيشُ معه أقربُ شيءٍ إلينا ، هذه حقائقُ مسلَّمٌ بها ، عَرَفَها الأطّباءُ من عشراتِ السنينِ ، وليست خاضعةً للمناقشةِ إطلاقاً ، قال تعالى : ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

العينُ نموذجاً :

يقولُ اللهُ سبحانه وتعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨] ، وقال : ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٩] ، وقال عزوجل : ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴾ [البلد : ٨] .

هل فكّرتُم كيف ترونَ بهذه العَينِ الصغيرةِ الأشياءَ بِحَجمِها الحقيقيِّ ؟ فإنّ أعظمَ آلةٍ للتصويرِ تعطيكَ صورةً لا تزيدُ على مساحةِ الكفّ! كيف ترى الجبلَ جبلاً ، والبحرَ بحراً ، والشّمسَ شمساً ؟

كيف ترى الأشياءَ بحجمِها الحقيقيِّ ؟ هذا السؤالُ لا يستطيعُ أيُّ عالِمٍ أن يُجيبَ عنه حتى الآنَ .

شيءٌ آخرُ ؛ لو أنّنا درَّجْنا اللّوْنَ الأخضرَ مثلاً ، أو أيَّ لونٍ آخرَ إلى ثمانمئةِ ألفِ درجةٍ ، فإنّ العينَ السليمةَ تستطيعُ أن تفرّقَ بين درجَتَين من هذه الدرجاتِ التي تزيدُ على ثمانمئةِ ألفٍ ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴾ [البلد : ٨] .

شيءٌ آخرُ ، كيف أنّ هذه العينَ تستطيعُ أنْ ترى البُعْدَ الثالثَ ؟ وهو العمقُ ، ترى الطولَ والعرضَ ، والعمقَ ، لو جعلَ اللهُ لنا عيناً واحدةً لرَأَينا بها الأشياءَ مسطّحةً ، لا مجسَّمةً بأبعادِها الثلاثةِ ، لذلك فالمسافاتُ التي أمامنا لا ندركها إلاّ بالعينين معاً ، أمّا المسافاتُ التي تعترض العينَ فتُدرَكُ بعينٍ واحدةٍ .

شيءٌ رابعٌ ، كيف أنّ هذه الصورةَ إذَا وقعَتْ على الشبكيّةِ تنطبعُ عليها ، وتنتقلُ إلى الدّماغِ في أقلَّ من جزءٍ من خمسينَ جزءاً من الثانيةِ ، ففي كلّ ثانيةٍ واحدةٍ تستطيعُ العينُ نقْلَ خمسينَ صورةً إلى الدّماغِ، الذي يُدركُ المُرادَ منها، فمتى يتمُّ التحميضُ وإظهارُ الصورةِ؟

شيءٌ آخرُ ، وهو أنّ العينَ السليمةَ تستطيعُ أنْ ترى خطَّين بينهما واحدٌ على عشرينَ ميليمتراً ، وفي العينِ أشياءُ وأشياءُ لا يحتملُ هذا المقالُ استيفاءَها ، فمثلاً في الشبكيّةِ التي لا تزيدُ مساحتُها على ميليمتراتٍ ، مئةٌ وثلاثون مليونَ عصيّةٍ من أجلِ الأبيضِ والأسودِ ،

وسبعةُ ملايين مخروطٍ من أجلِ الألوانِ والتفاصيلِ ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد : ٨ـ٩] .

إنّ في العَينِ قرنيّةً شفّافةً شفافيةً تامّةً ، فلو غُذّيَتْ هذه القرنيّةُ الشفافةُ عن طريقِ الشُّعَيْراتِ كما هي الحالُ في أيّ نسيجٍ آخرَ في الجسمِ لكانتِ الرؤيةُ مُشوّشَةً ، ولرأينا شبكةً فوقَ العينِ ، ولكنَّ القرنيّةَ وحْدها تتغذّى عن طريقِ الحلولِ ، أي : إنّ الخليّةَ الخارجيّةَ تأخذُ غذاءَها وغذاءَ جارتِها من أجلِ أنْ تبقَى الرؤيةُ سليمةً ، وشفّافةً ، وواضحةً .

والقزحيّةُ ، هذه الحدقةُ الملوّنةُ التي تتّسعُ ، وتنقبضُ ، تتّسعُ إذا قلَّ النورُ ، وتنقبضُ إذا اشتدَّ النورُ على نحوٍ آليٍّ ، إنّها تتّسعُ وتنقبضُ دونَ أن تعلمَ ، والدليلُ على ذلك أنّك إذا دخلْتَ فجأةً من مكانٍ مضيءٍ إلى مكانٍ أقلَّ إضاءةً لم ترَ شيئاً إلاّ أنْ تتّسعَ هذه القزحيّةُ على نحوٍ لا إراديٍّ ، حيث يقوم جسمٌ بلّوريٌّ بعملٍ لا يستطيعُ أن يقومَ به أكبرُ العلماءِ ، إنه ينضغطُ ، ويتقلّصُ ، ويتمدّدُ ، حيث يعلو ، والسائلُ الزجاجيُّ له ضغوطٌ معيَّنةٌ .

٢ ـ الكونُ :

يقولُ الحقُّ جلّ وعلا ، الذي خَلقَ السماواتِ والأرضَ بالحق : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

والحقُّ هو القرارُ والثباتُ ، والسموُّ والعلوُّ ، ونقيضُه الباطلُ ، وهو الزوالُ والزهوقُ ، والتردّي والعبثُ ، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ﴾ ، فأين هي آياتُ اللهِ في الآفاقِ ؟

ورد أنّ عددَ النجومِ في السماءِ بعددِ ما في الأرضِ من مَدَرٍ وحجرٍ ، أي بعددِ ذراتِ الترابِ والحجارةِ ، فعلماء الفلك في الماضي كانوا يعدُّون النجومَ بالألوفِ ، وبعد أنِ ارتقتْ كفاءةُ مراصدهم صاروا يعدُّونها بالملايينِ ، ثم وصلوا إلى الملياراتِ ؛ أي : ألوف الملايين ، أمّا اليومَ فإنهم يقدّرون عددَ النجومِ في مجرَّتنا دربِ التَّبابنة ، من خلالِ المراصدِ العملاقةِ بثلاثينَ ملياراً ، علماً أنّ مجرَّتَنا مجرةٌ متوسطةٌ في حجمِها ، وهي واحدةٌ مِن عشراتِ ألوفِ الملايينِ من المجراتِ ، التي لا يعلم عددَها إلا اللهُ ، لقد صدق اللهُ العظيمُ إذ يقول : ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق : ٦] .

هذا عن عددِ النجومِ ، فماذا عن حجومِها! ؟

إنّ حجمَ الأرضِ يساوي مليونَ مليونِ كيلومتر مكعب ، وإنّ الشمسَ تكبرُ الأرضَ بمليونٍ وثلاثمئة ألفِ مرة ، وإنّ المسافةَ بينهما مئةٌ وخمسون مليونَ كيلومتر ، وإنّ نجماً من النجومِ في برجِ العقربِ يتّسعُ للأرضِ والشمسِ مع المسافةِ بينهما ، وإن نجماً اسمه منكبُ الجوزاءِ يزيدُ حجمُه على حجمِ الشمس بمئةِ مليونِ مرة ، لقد

صدق الله العظيم إذ يقول : ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْىدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾

[الذاريات : ٤٧] .

هذا عن أعدادِها وأحجامِها ، فماذا عن المسافاتِ بينها ؟

إنّ ما بينها من مسافاتٍ تقدَّر بالسنين الضوئية ، فالضوءُ يقطعُ في الثانيةِ الواحدةِ ثلاثمئة ألف كيلومتر ، إذاً فهو يقطعُ في السنةِ عشرةَ آلاف مليارٍ من الكيلومترات ، فإذا علِمنا أنّ القمرَ يبعدُ عنّا ثانيةً ضوئيةً واحدةً ، وأنّ الشمسَ تبعدُ عنا ثماني دقائقَ ضوئيةٍ ، وأنّ المجموعةَ الشمسيةَ لا يزيدُ قطرُها على ثلاث عشرة ساعةً ضوئيةً ، وأنّ أقربَ نجمٍ ملتهبٍ إلى الأرض يبعدُ عنّا أربعَ سنواتٍ ضوئيةٍ ، ولكي نعلمَ ماذا تعني أربعُ سنواتٍ ضوئيةٍ نقول :

لو اتّجهنا إلى هذا النجمِ بمركبةٍ تساوي سرعتُها سرعةَ مركبةِ القمرِ لاستغرقتِ الرحلةُ أكثرَ من مئةِ ألف عام ، ولو ساوتْ سرعةُ هذه المركبةِ سرعةَ السيارةِ لاستغرقتِ الرحلةُ هذه قريباً من خمسين مليونَ عامٍ! هذا ما تعنيه أربعُ سنواتٍ ضوئيةٍ!! .

فما القولُ في سديمِ المرأةِ المسلسلةِ ، التي تبعدُ عنّا مليونَي سنةٍ ضوئيةٍ ؟ بل ما القولُ في مجرةٍ اكتشفتْ حديثاً ، تبعدُ عنا عشرينَ ألفَ مليون من السنواتِ الضوئيةِ ؟ لقد صدق الله العظيمُ إذ يقول :

﴿ ۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

[الواقعة : ٧٥ـ٧٦] .

هذا ولم نتحدّثْ عن حركاتِ النجومِ ، وسرعتِها العاليةِ ، ولا عن مداراتِها الواسعةِ ، ولا عن شدّتِها ، ولا قوّةِ إضاءتِها ، ولا عن قُوى التجاذبِ التي تربطُها ، ولا عن توازنِها الحركيِّ ، وعلى كلٍّ فالعجزُ عن الإدراكِ إدراكٌ ، ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر : ٦٧] .

**البعوضةُ نموذجاً :**

مِن آياتِ اللهِ الدالَّةِ على عظمتِه قولُه تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

إذا وقفَتْ بعوضةٌ على يدك قتلتَها ، ولم تشعرْ بشيءٍ ، وكأنّ شيئاً لمْ يحدُثْ ، لِهَوَانِها عليك ، حتى إنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام قال : « لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِراً مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ »[1] .

إنّ في رأسِ البعوضة مئةَ عينٍ ، ولو كُبِّر رأسُ البعوضةِ بالمِجْهَرِ

(١) الترمذي ( ٢٣٢٠ ) ، ابن ماجه ( ٤١١٠ ) عن سهل بن سعد .

الإلكترونيِّ لرأينا عيونَها المئةَ على شكلِ خليةِ النحلِ ، وفي صدرِ البعوضة ثلاثةُ قلوبٍ ، قلبٌ مركزيٌّ ، وقلبٌ لكلِّ جناحٍ .

وهي تملك جهازاً لا تملكُه الطائراتُ الحديثةُ ، إنه جهاز ( رادار ) ، أو مستقبلاتٌ حراريَّةٌ ، بمعنى أن البعوضةَ لا ترى الأشياءَ بأشكالِها وألوانِها ، بل بحرارتِها ، فلو أنّ بعوضةً وُجِدَتْ في غرفةٍ مظلمةٍ لا ترى فيها إلا الإنسانَ النائمَ ، لأن حرارتَه تزيدُ على واحدٍ من الألْفِ من درجة الحرارةِ المئويةِ .

والبعوضةُ تملك جهازاً لتحليل الدمِ ، فما كل دمٍ يناسبها ، فقد ينامُ طفلانِ على سريرٍ واحدٍ ، وفي الصباحِ تجد جبينَ أحدِهما مليئاً بلسعاتِ البعوضِ ، أمّا الثاني فلا تجد أثراً للسعِ البعوض فيه .

والبعوضةُ تملكُ جهازاً للتخديرِ ، فلو غرستْ خرطومَها في جلد النائم لقتَلَها ، ولكنها تخدِّرُ موضعَ لسْعِها ، وحينما يزولُ أثرُ المخدِّرِ يشعرُ النائمُ بألمِ اللسعِ ، في حين أنّ البعوضةَ تطيرُ في جوِّ الغرفةِ .

وتملك البعوضةُ جهازاً لتمييع الدمِ الذي تمتصُّه من الإنسانِ ، حتى يتيسَّرَ له المرورُ عبْرَ خرطومِها الدقيقِ .

وللبعوضةِ خرطومٌ ، فيه ستّ سكاكين ، أربع سكاكينَ تُحدِثُ في جلدِ الملدوغِ جرحاً مربَّعاً ، ولابد مِن أن يصلَ الجرحُ إلى وعاءٍ دمويٍّ ، والسكِّينتانِ الخامسةُ والسادسةُ تلتقيان لتكوِّنا أنبوباً لامتصاصِ دمِ الملدوغِ .

ويرِفُّ جناحَا البعوضةِ عدداً كبيراً من المرَّاتِ في الثانيةِ الواحدة ، حيث يصلُ هذا الرفيفُ إلى درجةِ الطنينِ .

وفي أرجُلِ البعوضةِ مخالبُ إذَا أرادتْ أنْ تقفَ على سطحٍ خشنٍ ، ولها محاجمُ إذا أرادتْ أن تقفَ على سطحٍ أمْلسَ .

وتستطيعُ البعوضةُ أنْ تشمَّ رائحةَ عرقِ الإنسان من مسافةِ ستينَ كيلومتراً .

قال تعالى :

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] .

قال ابن القيم رحمه الله : « قولُه تعالى : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ ، الآية ، وهذا جوابُ اعتراضٍ اعترضَ به الكفارُ على القرآنِ ، وقالوا : إنَّ الربَّ أعظمُ من أنْ يَذكرَ الذبابَ ، والعنكبوتَ ، ونحوَها من الحيواناتِ الخَسِيسةِ ، فلو كان ما جاء به محمَّدٌ كلامَ اللهِ لِمَ يذكرُ فيه الحيواناتِ الخسيسةَ فأجابهم اللهُ تعالى بأنْ قال : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ ﴾ ، فإنَّ ضرْبَ الأمثالِ بالبعوضةِ فما فوقَها إذا تضمَّنَ تحقيقَ الحقِّ ، وإيضاحَه ، وإبطالَ الباطلِ وإدْحاضَه كان مِن

أحسنِ الأشياءِ ، والحَسَنُ لا يُسْتَحْيَا منهُ »[١] .

إنّ البعوضةَ ليست أقلَّ شأناً مِنَ الحوتِ الأزرقِ الذي يبلغُ وزنُه أكثرَ من مئةٍ وخمسين طناً ، ويستهلكُ وليدُه في الرضعةِ الواحدةِ ثلاثمئة كيلو ، حيث تعادِلُ ثلاثُ رضعاتٍ من الحليبِ يومياً طنًّا واحداً ، وإذا أرادَ الحوتُ أنْ يأكلَ أكلةً متوسطةً يملأُ بها معدتَه يحتاجُ إلى أربعةِ أطنانٍ من السمكِ ، وهذه وجبةٌ ليست دسِمَةً ، وليس خَلْقُ البعوضةِ بأقلَّ مِن خلقِ الحوتِ ، والدليل قوله تعالى : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ ﴾ [الملك : ٣] ، وقولُه سبحانه : ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٤٩ـ٥٠] .

إنّه خلْقٌ كاملٌ ؛ بدءاً من الفيروساتِ التي لا تُرى إلا بالمجاهرِ الإلكترونيةِ ، وهناك مخلوقاتٌ أدقُّ من ذلك ، وانتهاءً بالمجراتِ التي تبعدُ عنا ملياراتِ السنواتِ الضوئيةِ ، ذلكم اللهُ ربُّ العالمين ، من الذَّرَّةِ إلى المجرةِ ، نظامٌ واحدٌ ، إتقانٌ واحدٌ ، ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍۚ ﴾ [النمل : ٨٨] .

* * *

(١) بدائع الفوائد ( ٤/ ٩٤٦ـ٩٤٧ ) .